الفصل الأول

الإعجـــاز القــرآنى

الإعجاز هو إظهار صدق الرسل – عليهم جميعا السلام – بإظهار أمور على أيديهم يعجز البشر عن معارضتها أو صنعها، ولقد أيد الله كل رسول بمعجزة تناسب قومه وعصره وحدود رسالته مثل سفينة نوح وناقة صالح وعصا موسى وإحياء الموتى بإذن الله على يد عيسى عليهم جميعا السلام، وانتهت المعجزات الحسية كلها، وجاء خاتم النبيين سيدنا محمد ﷺ رسولا للبشرية كلها فى كل مكان وزمان (وليس للعرب وحدهم) كما فى قوله تعالى:

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف: ١٥٨)

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سبأ: ٢٨)

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (الأنبياء)

وبملاحظة الألفاظ الواردة هنا مثل (جميعا، وكافة ، للعالمين) نستنتج أن القرآن رسالة عالمية، وأن الإسلام دين الحق لكل البشرية كما فى قوله تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (التوبة، الصف: ٩)

ورغم بشارة سيدنا موسى وعيسى بقدوم سيدنا محمد – عليهم جميعا السلام – فإن معظم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ينكرون للأسف نبوة سيدنا محمد ﷺ كما فى قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

(الصف: ٦)

ولما كان محمد خاتم النبيين لكل العالمين فقد أيده الله عز وجل بمعجزة خالدة متجددة وهى القرآن الكريم، أى الكتاب السماوى الجامع الشامل المعجز المهيمن على كل الكتب السابقة والمرجع الشامل لها كما فى قوله تعالى:

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ (المائدة: ٤٨)

ويتميز القرآن بأنه لم يحور، لأن الله سبحانه تعهد بحفظه كما فى قوله تعالى:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الحجر)

فالقرآن الكريم حجة الله على عباده ولا ينبغى أن يكون إعجازه قاصرا على اللغة والبيان والبلاغة ليتحدى فصحاء العرب فقط؛ لأن الإنسانية كلها بجميع شعوبها على اختلاف لغاتهم مخاطبة منذ فجر الإسلام بالقرآن الكريم، بل ومطالبة بالتسليم بأنه كلام الله وليس كلام البشر، فهو صادق وصالح لكل مكان وزمان، وسيبقى القرآن حتى قيام الساعة معجزة باقية يتبين للناس منها على مر الدهور وجه لم يكن يتبين وناحية لم يكن أحد يعرفها، فيكون هذا التجدد والإعجاز بمثابة تجديد الرسالة الإسلامية، وكأنما رسول الله محمدﷺ قائم بيننا فى كل عصر يدعو الناس إلى دين الله ويريهم دليلا على صدقه، آية جديدة تطابق بين القرآن الكريم والعلم اليقينى، مصداقا لقوله تعالى:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ (فصلت)

فالقرآن شهادة إلهية على صدق نبوة سيدنا محمد ﷺ وشهادة أبدية إلى يوم القيامة على عالمية رسالته، يقول سبحانه:

﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ (الأنعام: ١٩)

وقوله عز وجل:

﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ ﴾ (النساء: ١٦٦)

وبهذا يشهد الله على معجزة القرآن التى احتوت العلم الإلهى الذى أراد سبحانه أن يبلغه للناس، ولذلك قال ﷺ:

«ما من نبى من الأنبياء إلا أعطى من الآيات (أى المعجزات) ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلىّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة».

قال ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث:

«ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة، وخرقه للعادة فى أسلوبه وفى بلاغته وإخباره بالمغيبات - فلا يمر عصر من العصور إلا ويظهر فيه شىء مما أخبر به أنه سيكون - يدل على صحة دعواه فَعمَّ نفعه من حضر ومن غاب ومن وجد ومن سيوجد».

ولهذا فالقرآن معجزة متجددة وبه أنباء لا تتجلى للبشر إلا بعد حين، وعطاؤه ممتد إلى قيام الساعة، فالمستقبل لا ينقطع كما فى قوله تعالى:

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾ ﴾ (ص)

وقوله سبحانه:

﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (الأنعام)

ويعدد فضيلة الشيخ محمد الصابونى فى كتابه التبيان فى علوم القرآن وجوه الإعجاز القرآنى كما يلى:

١ - النظم البديع المخالف لكل نظم معهود فى لسان العرب.

٢ - الأسلوب العجيب المخالف لجميع أساليب اللغة العربية.

٣ - الجزالة التى لا يمكن لمخلوق أن يأتى بمثلها.

٤ - التشريع الدقيق الكامل الذى يفوق كل تشريع وتطبيق.

٥ - الإخبار عن الغيب الذى لا يعرف إلا بالوحى.

٦ - الوفاء بكل ما أخبر القرآن من وعد ووعيد.

٧ - وفاؤه بحاجات البشر.

٨ - تأثيره فى قلوب الأتباع.

٩ - عدم التعارض مع العلوم الكونية المقطوع بصحتها[1].

---

(١) محمد على الصابونى: التبيان فى علوم القرآن مكتبة الصابونى بمكة المكرمة.

ويوضح الأستاذ محمود محمد ربيع[1] معجزة الكلمة فى القرآن كما يلى:

وإنه لمن العجيب ونحن نقيم أمر الإنسان والحياة كلها: ديانة وحضارة على محور «الكلمة» أن تكون معجزة الرسالة المحمدية والحضارة الإسلامية هى معجزة «الكلمة» ممثلة فى الكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وهى معجزة تختلف عما سبقها من معجزات الرسالات السماوية: فكلمات القرآن قد خلدت على الدهر. بينما انقضت المعجزات الأخرى بانقضاء زمنها.

بيد أن هناك فرقا جوهريًا وأساسيًا بينها وهو أن تلك المعجزات السابقة إنما كانت فى جملتها معجزات مادية كعصا موسى عليه السلام، وكخلق الطير، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى. وكانت من حيث هى كذلك تتناسب مع عصرها وناسها الذين كانوا على حال من البداءة والبداوة تعجزهم وتبهرهم فيها الخوارق الطبيعية المادية وبخاصة فى الأشياء التى برع بعضهم فيها كالسحر فى زمن موسى عليه السلام، والطب فى زمن عيسى عليه السلام.

جاء موسى عليه السلام بعصاه وألقاها فإذا هى حيَّة تسعى تبتلع حبالهم وعصيهم التى خيّل إليه من سحرهم أنها تسعى.. وضرب بها البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم.. ثم ضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا.

وجاء عيسى عليه السلام بما فاق علم قومه وحذقهم فى الطب فأبرأ الأكمه والأبرص.. وأحيا الموتى.. وخلق لهم من الطين طيرًا. وبهذا فقد أتى كلٌ بالبينة، وأقام الحجة، وأثبت أنه رسول من عند الله.

وهنا تكون المعجزة قد أدت دورها ولم تعد هناك حاجة إليها فهى حجة ودليل للرسول على قومه وفى عصره فقط.

ولو ظلّت هذه المعجزات إلى عصر كعصرنا هذا: عصر الذرة واللاسلكى والعقول الإلكترونية والطائرات والرادار والصواريخ بأنواعها المختلفة: من عابر للقارات، وعابر للفضاء، وحامل للسفن الكونية التى تغزو الكواكب. هذا العصر الذى تستبدل فيه الأجزاء والأعضاء البشرية: فتوضع القرنيات مكان القرنيات فتبصر العيون، وتزرع القلوب مكان القلوب فى محاولة لإطالة أمد الحياة. عصر بنوك الدم و(قطع الغيار البشرية) ومحاولة استنساخ الحيوان والإنسان.

نقول لو ظلت معجزات الأنبياء إلى عصورنا هذه.. لظنها الناس شيئا من مستحدثات العلم والتكنولوجيا.

---

(١) سؤال كبير: لماذا الإسلام؟ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨.

ومن الناحية الأخرى.. لو كان وصل إلى هؤلاء الأقدمين أن شخصًا «كأرمسترونج» - رائد الفضاء الأمريكى - قد صعد إلى القمر فى ساعات (راكبا طبقا عن طبق بصاروخ متعدد المراحل) وسار عليه بضع خطوات.. وجمع منه بعض «العينات».. ثم هبط يلقى عليهم بالتحيات.. لقال عنه قوم كاليونان الأقدمين: إنه إله القمر، ولقال عنه آخرون: ليس هذا ببشر، ولكانوا عبدوه من دون الله! ولكننا - نحن المسلمين - وجدنا هذا مذكورا بصريح العبارة كإعجاز علمى للقرآن فى قوله تعالى:

﴿ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ ﴾ (الانشقاق)

هذه المعجزة الإسلامية.. معجزة الكلمة فى القرآن معجزة معنوية، ومعجزة روحية، فلا يتصدى لها كائن من كان فى مجالها. وهى ما زالت على ابتداء ما مضى، وعلى امتداد ما يجدّ وما يُستقبل آية بينة، ومعجزة باهرة تتحدى العالم كله: إنسه وجنّه.. وتقيم عليهم الحجة.. وتقطع عليهم السبيل كما فى قوله تعالى:

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ (الإسراء)

والإنسان - كما يقولون - هو الحيوان الناطق - والقرآن كمعجزة للكلمة على اتصال دائم بقلبه وعقله، فهو معجزة إلهية متجددة فى وجدان كل فرد.. وكل جماعة.. وكل أمة.. وكل عصر كما وصفها الشاعر:

دامت لدينا ففاقت كل معجزة من النبيين إذْ جاءت ولم تدم

فكانت آخر الرسالات السماوية هى «الكلمة القرآنية» حتى تذكر الإنسان دائما أنه إنسان.

وهى معجزة معنوية روحية حتى لا ينازعها آخر المستحدثات العلمية والتكنولوجية كغزو الفضاء فى مثل قوله تعالى:

﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ (الرحمن)

وقد قلنا إن معجزات الرسالات السماوية السابقة إنما كانت مجرد دليل وبرهان على نبوة النبى، وعلى صدق دعواه من أنه رسول من عند الله.. وبهذا كانت المعجزة شيئًا والرسالة شيئًا آخر فعصا موسى عليه السلام ليست رسالة، ومعجزات عيسى عليه السلام كذلك.

وإنما الرسالة هى الدعوة إلى توحيد الله وعبادته. والمعجزة بعد ذلك إنما هى دليل وبرهان على صدق الرسول وحقيقة نبوته كما قدمنا.

أما بالنسبة للإسلام: فإن الرسالة هى المعجزة، والمعجزة هى الرسالة.

فلا فرق بين الرسالة والمعجزة لأن القرآن الكريم هو الرسالة والمعجزة معًا.

وهذا هو سر بقاء المعجزة وخلودها.

والكلمة فى القرآن توحد بين العقيدة من جهة والفكر من جهة وبين الزمان والمكان وبين السماء والأرض من جهة أخرى، فالكلمة فى القرآن هى بحق محور إسلامية المعرفة.

ويقول أ. محمود محمد ربيع فى كتاب[1] بعنوان: «الله.. والكلمة» إن الكلمة الإلهية الأزلية الخالدة كلمة: الحق.. والخلق.. والمصير.. كلمة: «كُنْ».

وهى أخطر وأعظم كلمة فى الوجود.

إنها كلمة الأزل والخلود وكلمة الحياة..

هذه الكلمة هى كلمة الخالق الذى بلور قوته وقدرته وعظمته وسره فى هذه الكلمة: «كُنْ».

وذلك حيث يقول فى قرآنه الكريم عن ذاته - سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ (يس)

ويزيد من خطورة هذه الكلمة وجلالها وشرفها وسموها أنها جاءت فى معرض التعقيب على هذه الآيات الكريمة الآتية التى سبقتها والتى دللت على عظم قدرة الخالق سبحانه:

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾
وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾
قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ
لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى
خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ
ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ (يس)

---

(١) مرجع سابق.

هذه هى كلمة الحق والخلق والمصير:

تجلت أول ما تجلت بالنسبة للمخلوقين فى آدم أبى البشر حيث تناسل منه البشر:

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾ (آل عمران)

وتجلّت فى خلق عيسى عليه السلام فى هاتين الآيتين الكريمتين من سورة مريم:

﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ ﴾ (مريم)